مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 2 خ / 16 /03/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

مظاهر التَّواصل بين الفقهاء والمتصوفة خلال العهد الزياني

Models of Communication between the jurists and Sufis during the Zayani era

مشراوي ابراهيم * Mechraoui Brahim Brahimmechraoui2@gmail.com	تاريخ وسيط	مختبر الدراسات الحضارية والفكرية/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة أبو بكر بلقايد/ تلمسان
د. مطهري فطيمة Metahre Fatima bentalhafatima@yahoo.fr	تاريخ وسيط	مختبر الدراسات الحضارية والفكرية/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة أبو بكر بلقايد/ تلمسان

DOI : 10.46315/1714-010-002-035

الإرسال: 2020/04/23 **القبول**: 2020/10/18 **النشر**: 2021/03/16

ملخص:

ظهر التصوف في المغرب الأوسط الزياني كتيار قوي وفعال في الساحة الفكرية، حيث تبناه الكثير من الأعلام واعتنوا به ممارسة وتأليفا، وباعتبار أنه قد ظهر في بيئة فقهية فقد يعتقد البعض أنه سوف ينشأ بين هذين التيارين(الفقهي والصوفي) صراع ونفور وقطيعة، نظرا لكثير من الاعتبارات لعل أبرزها السلوك والممارسات، لكن العكس هو ما حدث فقد وجدت علاقة ود وتواصل بينهما .

وتهدف هذه المقالة إلى إبراز ملامح العلاقة الودية التي كانت قائمة بين الفقهاء والمتصوفة خلال العهد الزياني، وتسليط الضوء على أهم مظاهرها

كلمات مفتاحية: الفقهاء؛ المتصوفة؛ العلاقات؛ العهد الزياني؛ التيارات.

Abstract:

Sufism appeared in the Zayani Central Maghreb as a strong and effective current in the intellectual arena, where many flags adopted it and took care of it in practice and composition, and as it has appeared in a juristic environment some may believe that between these two currents (juristic and mystical) will arise conflict, aversion and estrangement, given many considerations are perhaps the most prominent of these behaviors and practices, but the opposite is what happened .

This article aims to highlight the features of the friendly relationship that existed between jurists and Sufis during the Zayani era, and highlight the most important aspects.

Keywords : jurists; Sufis; relations; Zayani era; Currents.

* - المؤلف المرسل: Brahimmechraoui2@gmail.com

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

1- مقدمة:

عرف المغرب الأوسط خلال العهد الزياني تطورا فكريا وحركة علمية نشيطة، كان من بين مظاهرها بروز العديد من الأعلام الذين تعدت شهرتهم البلاد بسبب كثرة مؤلفاتهم في مختلف العلوم، وكان ذلك بعناية سلاطين بني عبد الواد الذين أعادوا للفقه المالكي مكانته متخذين منه مذهب الدولة الرسمي، وأصبح للفقهاء مكانتهم وكلمتهم في جميع ما يجري في أوساط المجتمع.

وإلى جانب الفقه فقد برز تيار التصوف كمنافس له على الساحة العلمية والاجتماعية، حيث تبناه العديد من العلماء متخذين منه منهجا عمليا في حياتهم اليومية، ومع مرور الوقت عرف التصوف سلوكيات استنكرها الفقهاء وكان لهم ردود أفعال نحوها.

إن الباحث في تاريخ المغرب الأوسط خلال العهد الزياني لا يمكنه الخروج بتصور ثابت عن العلاقة التي كانت تجمع المتصوفة بالفقهاء في تلك الفترة، لأنه ليس من السهولة التمييز بين شخصية الفقيه من شخصية المتصوف، فنجد من المتصوفة من كان عالما بالفقه والحديث وأصول الدين، ومنهم من كان من أهل الخمول (ابن مريم، 1908، صفحة 94) ولم تذكر له كتب المناقب سوى أنه كان مستجاب الدعوة وله كرامات مشهورة، (ابن مريم، 1908، صفحة 93)، ومنهم من ابتعد عن هذه الطريق كليا واعتبر أن علوم الباطن أجدى وأنفع واقتصر على بعض المصنفات الصوفية، (فتحة، 1999، صفحة 214) وفي المقابل نجد من الفقهاء من اشتهر بالصلاح أكثر من شهرته بالفقه أمثال محمد بن يوسف السنوسي وعبد الرحمن الثعالبي وابن مرزوق وغيرهم.... كانوا منخرطين في تيار التصوف واتصفوا بالزهد والصلاح، كما أن العلاقة بين هاتين الفئتين (الفقهاء والمتصوفة) كانت تتسم أحيانا بالود والائتلاف وأحيانا أخرى بالنفور والاختلاف، وسنحاول في هذا المقال رصد صور التواصل والتعايش بينهما من خلال تتبع علاقة الود والائتلاف التي جمعتهما، وعليه يمكن طرح الإشكالية التالية : هل كانت هناك علاقة ود وتواصل بين الفقهاء والمتصوفة؟

- فيما تمثلت تلك العلاقة الودية وماهي أهم مظاهرها؟
- ما أسباب المؤدية إلى نشوء علاقة الود بينهما؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدنا على المنهج الوصفي لبيان سيرة أصحاب الفقه ورجال التصوف، كما اعتمدنا على المنهج المقارن بين سلوكيات الفقهاء والمتصوفة بغية التحليل والمناقشة.

2-التواصل الثقافي بين الفقهاء والمتصوفة:

من خلال مطالعتنا للمصادر التي تعرضت لترجمة وسير أبرز أعلام الفقه والتصوف في تلك الفترة، فإننا نعثر على كثير من ملامح التواصل الثقافي التي كانت جمعت بين هاتين الفئتين حيث نجد ذلك ممثلا في النقاط التالية:

2-1 -التتلمذ وإجازة بعضهم لبعض:

من بين العلاقات التي ربطت بين الفقهاء وأهل التصوف خلال العهد الزياني نجد تلك العلاقة المتمثلة في التتلمذ على بعضهم البعض وكذا الإجازات التي كانوا يحصلون علها وهو ما نلمسه من خلال العناصر التالية:

أ - الإجازة لغة وإصطلاحا :

لغة هي من مصدر أجاز ووزنها فعالة وأصلها إجوازة، وهي مشتقة من التجوز وهو التعدي فكأنه عدى روايته حتى أوصلها للراوي عنه، وعلى هذا يجوز أن يقال أجزت فلانا مسموعاتي أو مروياتي . ويقال أجازه وأجاز غيره وجازه أي سار فيه وسلكه، وأجازه بمعنى خلفه وقطعه، وتعني أيضا أنفذه (ابن منظور، 1987، صفحة 724).

أما اصطلاحا فهي إذن في الرواية لفظا أو خطا يفيد الإخبار عرفا، وهي إذن الشيخ لتلميذه ومن يستجيزه أن يروي عنه حديثا أو كتابا من تأليفه أو سائر مؤلفاته أو سائر مروياته (خالد بن مرغوب، 2009، صفحة 29).

***الإجازة العلمية:**

الإجازة العلمية يتم فيها ذكر المواد والكتب التي سمع الطالب شرحها أو قراءتها من الشيخ (ألفرد، 1987م، صفحة 414) وقد كانت تمنح للطالب من طرف أحد الشيوخ بعد أن يبلغ مبلغا يؤهله ليبث ذلك العلم (الونشريسي، 1981، صفحة 15) الذي أجيز فيه، وهي تعد بمثابة " شهادة كفاءة " يستحق بها المُجاز لقب الشيخ أو الأستاذ.

***الإجازة الصوفية :**

من الملاحظ أن الإجازة التي كانت خاصة بالعلم نجدها أيضا في ميدان التصوف « فقد وجدنا شيوخا أجازوا تلاميذهم بالسبحة والضيافة والخرقة الصوفية، ونحو ذلك من مظاهر الدخول في حضرة الشيخ والتتلمذ عليه» (سعد الله، 1998، صفحة 41) إذن فإلباس الشيخ الخرقة لمريديه أو البصق في فمه وتعيين بعض الأوراد والأذكار أو مصافحته يعد نوعا من الإجازة في الصوفية.

ب - نماذج من إجازة الفقهاء للمتصوفة :

جمع بعض المتصوفة إجازاتهم التي حصلوا عليها في مصنفات عرفت بالفهرس أو البرنامج، وتعرضوا فيها إلى ذكر أسماء الشيوخ الذين قرءوا عليهم وكذا العلوم التي أخذوها عنهم وتمت إجازتهم فيها، فمن بين المتصوفة الذين تتلمذوا على أيدي الفقهاء ونالوا الإجازة منهم نذكر:

– الخطيب محمد بن مرزوق التلمساني (711-781هـ/1311-1379م) وهو من رجال التصوف وكان يلقي العديد من الدروس في هذا الفن (ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، 1981، صفحة 47) وقد ترك ابن مرزوق مُؤلفا سماه " **عُجالة المستوفز المجاز في ذكر من إستجازني من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز** " جمع فيه أسماء من أخذ عندهم مختلف العلوم وأجازوه فيها (ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، 1981، صفحة 39) فذكر من بينهم الفقيه أبا علي ناصر الدين المشذالي (731هـ/1331م) حيث قرأ عليه ببجاية الفقه والحديث والتفسير والمنطق والعربية، كما أجازه الفقيه أبو عبد الله بن بختي الزواوي وفقيه بجاية وعالمها أبو عبد الله المسفر (ت743هـ/1342م) (ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، 2008، صفحة 302) وفي تلمسان العالمان الراسخان ابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن(743هـ/1342م) وشقيقه أبو موسى عيسى (749هـ/1348م) (التنبكتي، 2000، صفحة 248) وقد ذكرهم في برنامجه " عُجالة المستوفز".

– الشيخ أحمد بن الحاج الورنيدي (ت930هـ/1524م) الذي أرسل إلى شيخه ابن زكري رسالة يطلب منه الإجازة فيها معتذرا عن تعجله في طلبها قبل الأوان، وكان طلبه للإجازة في علم الفقه واللغة وغيرهما مبينا ذلك في أرجوزته بقوله:

مطلقة في الفقه والنحو وما سواهما والقيد لن يلتزما (ابن مريم، 1908، صفحة 21)

مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 2 خ / 16 /03/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

وقد أسعفه ابن زكري لما طلب بقوله في نص الإجازة ما يلي: « .... وما طلب من الإجازة فقد سوغته إنجازه، فليرو عني ما يجوز في الرواية على الشروط المعروفة، والسنن المألوفة، فهو أهل لأن يروي ويروى عنه من شاء على وجه الصواب، لجميع ما استفاد مني بخطاب أو وجده في كتاب، أو بلغه له الأصحاب.....قال ذلك وكتبه بخط يده عبيد الله سبحانه أحمد بن محمد بن زكري عام 897هـ » (ابن مريم، 1908، صفحة 23) وبعد الحصول على هذه الشهادة يصبح طالبها في عداد الشيوخ، ويتمكن بعدها من التدريس في الفن الذي أجيز فيه.

– الشيخ سيدي أحمد بن جيدة المديوني الوهراني (951ته/1544م) وهو من رجال التصوف أيضا قد أخذ عن الامام السنوسي علم التوحيد (ابن مريم، 1908، صفحة 52) وقرأ عليه عقيدته الصغرى، وهو(أي ابن جيدة) ممن أجازوا المنجور(995هـ/1587م) صاحب الفهرست وقد ذكره فيها (المنجور، 1976، صفحة 17).

– ومن المتصوفة الذين كانوا من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها الشيخ عبد الرحمن الثعالبي(ت875هـ/1471م) أقام ببجاية وتتلمذ على فقهائها، فذكر أنه دخل بجاية ولقي بها الأئمة المقتدى بهم في العلم والدين والورع، أصحاب الفقيه الزاهد عبد الرحمن الوغليسي(ت786هـ/1384م) فأخذ عنهم (الطالبي، 2011، صفحة 169) وتأثر بهم منهم الحسن بن عثمان المنجلاتي، والإمام العلامة أبو العباس النقاوسي وكان الثعالبي يحرص على أخذ الإجازة من شيوخه الذين أخذ عنهم.

ج - نماذج من إجازة المتصوفة للفقهاء :

وفي المقابل فإننا نجد أن بعض المتصوفة قد أجازوا الفقهاء في علم التصوف، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

– جاء في نص الإجازة التي حصل عليها الشيخ أبو الفرج بن أبي يحي الشريف التلمساني (ابن مرزوق، المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج خبايا الخزرجية، (ب.د.ت)، صفحة 37) أن الإمام محمد بن مرزوق الحفيد بالإضافة إلى أنه أجازه في العديد من العلوم التي تلقاها عنه، فقد ألبسه خرقة التصوف وكتب تحتها ابن مرزوق ما نصه: « صدق السيد بن السيد أبو الفرج المذكور فيما ذكره من القراءة والسماع والتفقه وبرَ، وقد أجزته في ذلك كله فهو حقيق بها مع الإنصاف وصدق النظر، جعلني الله وإياه ممن علم وعمل لآخرته واعتبر، قاله محمد بن مرزوق»

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

(المقري، 1988، صفحة 424) كما ألبسه إياها أبوه وعمه، وهما ألبسهما أبوهما أي جد ابن مرزوق الحفيد، مما يدل على حرص العلماء على تلقي علوم التصوف والعناية بالدخول في سلسلتها، بل أصبح بعض منهم يتباهى بأخذ الطرق والأذكار والخرقة والسبحة والمصافحة والأسودين (التمر والماء) (سعد الله، 1998، صفحة 467)، وإن كان ذلك قد ظهر بعد هاته الطبقة التي ذكرناها. ولا شك في أن أبا الفرج بن أبي يحي ليس الفقيه الوحيد الذي أخذ الإجازة في التصوف من ابن مرزوق، فإذا كان هذا الأخير قد منحها لأبي الفرج فلا يعقل أن يمنع منها غيره من الفقهاء.

– ومن أمثلة الإجازات الصوفية أيضا ما ذكره ابن عسكر الشفشاوني أن شيخه أبا العباس أحمد العبادي التلمساني (ت985هـ/1577م) كان يجيز تلاميذه ومن قرأ عليه علم التصوف في سلسلة مشايخ الصوفية (الشفشاوني، 1977، صفحة 118) فمن الذين أجازهم العبادي ابنه الشيخ أحمد الذي أجاز بدوره الشفشاوني صاحب الدوحة بالعهد والصحبة وهي طريقة يتم بها الحفاظ على تواتر هذا العلم من السلف إلى الخلف.

وإضافة إلى ما ذكرناه فقد وجدنا بعض المتصوفة يأخذون الإجازة عن بعضهم بعضا لكن ليس في علم التصوف بل في علوم أخرى، فنجد الثعالبي يأخذ الفقه والحديث عن شيخه أبي عبد الله محمد بن مرزوق، وكلاهما معدودان من رجال التصوف، وفي ذلك يقول الثعالبي : « وقدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله بن مرزوق فأقام بها وأخذت عنه كثيرا وسمعت عليه جميع الموطأ..... وختمت عليه أربعينيات النووي قراءة عليه في منزله» (التنبكتي، 2000، صفحة 259) وأجازه ابن مرزوق وأذن له في الإقراء، وقد كانت إقامته حينها في تونس عندما كان متوجها للحج، مما يبين أن إجازة المتصوفة لتلامذتهم لم تكن مقتصرة على علم التصوف وحده بل تعدته إلى غيره من العلوم الأخرى.

2-2 - التأليف والتدريس في كلا المجالين الصوفي والفقهي :

كان كثير من المتصوفة في الوقت نفسه فقهاء وأهل علم يجمعهم المذهب المالكي، الشيء الذي حال كثيرا دون خلافهم، فلم ينشأ بينهم وبين الفقهاء نزاعات، وذلك راجع لإعتراف المالكية بصحة منهج الصوفية، فقد كان لكثير من أهل التصوف مؤلفات في الفقه وأصوله والتفسير وعلم التوحيد وغيره، فألف السنوسي في التوحيد عقائده (التنبكتي، 2000، صفحة 571) التي كانت مرجع العلماء في هذا العلم، وألف الشيخ ابراهيم التازي(866هـ/1462م) وهو من الأولياء

الزاهدين والعباد الصالحين في الفقه والأصول وعلم الحديث (التنبكتي، 2000، صفحة 60) « وألف أبو عبد الله المقري كتاب "**المحاضرات**" الذي ضمنه آداب المحاضرة ومجالس المناظرة وتناول فيه عقيدة التوحيد ورد فيه على المتصوفة الذين يرون أنفسهم العارفون بالله القريبون منه» (بن داود، 2009/2010م، صفحة 219) كما أن المرازقة إلى جانب كونهم متصوفة فقد كتبوا في الفقه والأصول والفروع، فنجد أن محمد بن مرزوق الحفيد(ت842هـ/1439م) كان ملما بالمذهب المالكي واسع الإطلاع على بقية المذاهب الأخرى، وكان نحويا وعروضيا وفقيها وصوفيا (ابن مريم، 1908، صفحة 201) وقد أدى إلمام المرازقة بمختلف العلوم إلى وضع تصوفهم « في إطار الشريعة فنالوا بذلك احترام شريحة الفقهاء، يدل على ذلك أن خواص أتباعهم كانوا من النخبة الفقهية فمثلما كان لأبي عبد الله محمد الجد في القرن7هـ خواصا من الأصحاب كلهم من الفقهاء صار أيضا لأبي العباس أحمد في القرن 8هـ خواصا من أهل التصوف» (بونابي، 2005/2006م، صفحة 387).

وبالمقابل نجد العديد من الفقهاء قد تلقوا علومهم عن شيوخ التصوف الذين كانت لهم مجالس دروس يحضرها الفقهاء ويأخذون منها علوم التصوف، مثلما كان الحال مع الشيخ ابراهيم المصمودي (ت805هـ/1403م) الذي كان من شيوخ ابن مرزوق الحفيد (ابن مريم، 1908، صفحة 64) ومثله ما جاء في ترجمة الشيخ الولي الصالح الحسن أبركان أنه «كان من الفقهاء المبرزين وصدور المدرسين، انتفع الناس به بتدريسه في قراءة كتب الفقه وخصوصا رسالة ابن أبي زيد، وجامع الأمهات لابن الحاجب، وكان مشيخة الوقت من الفقهاء الأعيان وصدور ذلك الزمان يحضرون مجالسه ويعترفون له بالإمامة في العلوم، والتقدم في مدارك الفهوم» (ابن صعد، 2009م، صفحة 116) فكان الجمع بين التصوف والفقه خاصة الفقه المالكي ميزة لذلك العصر، إذن فهذا الجمع بين العلمين (الفقه والتصوف) وممارستهما تأليفا وتدريسا قد عزز من رابطة التواصل بين الفريقين وأذاب الحواجز التي من شأنها أن تعكر صفو العلاقة بينهما.

3-2 – **المراسلات بين الفقهاء والمتصوفة**:

ومن مظاهر هذا الود والتواصل نجد تلك المراسلات التي كانت تتم بين الفقهاء ورجال التصوف حول بعض القضايا الدينية، حيث اختلفت أغراضها فقد كان بعض العلماء إذا ألف كتابا يرسله لأحد العلماء في ذلك الفن ليطلع عليه، منها الرسالة التي بعث بها أبو الحسن الصغير مع شرحه

لرسالة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني إلى بعض شيوخ تلمسان كالشيخ محمد بن يوسف السنوسي، والشيخ الحلوي نزيل تلمسان الذي قال بعدما طالعها أنها « تشبه الطرر، ففرحت بها» (بوقلي، 2011، صفحة 404) واحتفظ بها إلى أن بلغه بعد ذلك أمورا أنكرها عليه، وعندما ألف الشيخ عبد الكريم المغيلي كتابه العجيب الذي سماه " **مصباح الأرواح في أصول الفلاح"** قام بإرسال نسخة منه إلى الشيخين محمد بن يوسف السنوسي في تلمسان، وابن غازي للإطلاع عليه وتقريضه. (نويهض، 1980، صفحة 308)

ومنها تلك المراسلات التي وقعت بسبب قضية يهود توات وملأ خبرها بلاد المغرب، ووقع بسببها خلاف بين الفقيهين الكبيرين عبد الكريم المغيلي، وقاضي توات الفقيه أبي بكر العصنوني، وعلى إثر هذا الاختلاف الذي وقع بين الفقيهين تمت مراسلة العلماء في تلمسان وفاس وتونس، فكتب الفقيه العصنوني ما نصه: « سيدي جوابكم في قضية وقع فيها النزاع بين طلبة الصحراء وهي كنائس اليهود الكائنين بتوات وغيرها من قصور الصحراء، فقد شغب فيها علينا المغيلي وولده سيدي عبد الجبار تشغيبا كاد أن يوقع في فتنة وذلك أني أفتيت بتقريرها » (الونشريسي، 1981، صفحة 214) لكن الإمام المغيلي كان يرى أن هدمها واجب وقال: « لا يفتي بتقريرها إلا دجال» (الونشريسي، 1981، صفحة 217) وكان يرى رأيه الفقيه الفجيجي من أهل توات، ولم تكن الرسائل التي كانت تترى بينهم حكرا على الفقهاء وحدهم، بل اشترك فيها بعض المتصوفة مثل الإمام السنوسي.

وكانت المراسلات من أهم وسائل الاتصال بينهم ففيها « تبادل للمعلومات وحفظ للعلائق الودية، ووضوح للمسائل العلمية الغامضة، وكان العلماء يتبادلون الألغاز ونحوها» (سعد الله، 1998، صفحة 401) مثلما وقع بين الشيخ الزاهد الصالح ابن الحاج الورنيدي(930هـ/1524م) وعصريه الفقيه الامام محمد بن غازي مراسلات يكتب كل واحد منهما لصاحبه بالمسائل، منها تلك الرسالة التي نقلها ابن مريم في البستان وكان موضوعها الإلغاز في مسألة القلم والدواة، حيث كتب ابن غازي ما نصه:

وميت قبر طعمه عند رأسه إذا ذاق من ذاك الطعام تكلما
يقوم فيمشي صامتا متكلما ويأوي إلى القبر الذي منه قُوما
فلا هو حي يستحق زيارة ولا هو ميت يستحق ترحمـــا

فأجابه الشيخ أحمد بن الحاج الورنيدي:

بحمد الإله أبتدي ثم بعده أصلي على خير الأنام مسلما

هو القلم الدواة وطعمه مداد كلامه الكتـابـة فـافهـمـا

وكاتب هذا أحمد بن محمد عفا الله عنه كل ما كان أجرما (ابن مريم، 1908، صفحة 8)

كما أن الفقيه أبو العباس أحمد البجائي راسل الشيخ ابن الحاج الورنيدي المذكور في قضية أشكل عليه الفصل فيها، ويتعلق موضوعها بجواز الإقامة من عدمه في بلد كثر فيه الظلم وانتشر فيه الباطل، وذل فيه المسلمون وعز فيه الكفار، وقد رد عليه الشيخ ابن الحاج بجواب شاف في المسألة (ابن مريم، 1908، صفحة 15) نقله ابن مريم في البستان كاملا.

3- العلاقة الإجتماعية بين الفقهاء والمتصوفة :

رغم ما قد يتبادر إلى ذهن المتابع للعلاقة التي كانت تربط الفقهاء برجال التصوف في العهد الزياني من أنها كانت متوترة، ويغلب عليها طابع الصراع الفكري المؤدي إلى القطيعة والتنافر، إلا أنه قد وجدت الكثير من الحالات التي تفند هذه الفكرة الراسخة في أذهان الكثير من المتابعين لهذا الشأن، وتدل في نفس الوقت على تأكيد وجود علاقات اجتماعية طيبة كانت تربط كلا الفئتين ببعضهما.

1.3 شفاعة الفقهاء للمتصوفة لدى السلاطين:

يمكن في هذا المقام أن نذكر قصة الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن مرزوق (ت 741هـ/1341م) عندما تم سجنه من طرف السلطان أبي يعقوب المريني، استدعى هذا الأخيرُ الفقيه المالكي أبا الحسن التنسي (706هـ/1306م) ليستشيره في أمر هذا السجين (ابن مرزوق)، فلما سأله السلطان عن رأيه فيه شفع له الفقيه التنسي عند السلطان وبين له حاله ومكانته عند الله وعند الناس وأشار عليه بإطلاق سراحه (ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، 2008، صفحة 194) ثم إن السلطان المريني دعا بالفقيه الكبير مقيم دولته أبي محمد عبد الله بن أبي مدين وكان من خواصه ليستطلع له من عند ابن مرزوق خبر من كان يتردد عليه بالمؤن أثناء الحصار، يقول ابن مرزوق: « فدخل علي أبو محمد عبد الله فآنسني وباسطني....وقبل رأسي وقال لي أحسنت يا ابن الصالحين معاذ الله أن يهلك أحد على يدك» (ابن مريم، 1908، صفحة 28) وأشار هذا الفقيه

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

على ابن مرزوق بكتم خبر الرجل، وعدم إفشاء سره لكي لا يهلك بسببه ووعده بالنجاة من السجن، فلما عرف السلطان المريني صدق ابن مرزوق خلى سبيله.

إن أحداث هذه القصة التي ذكرناها هي مرآة صادقة تعكس لنا جو التآزر والتعاطف الإجتماعي، وتعبر بصدق عن قوة اللُحمة التي تربط الفئتين ببعضهما، وتلغي تلك الصورة النمطية العالقة في الأذهان بأن العلاقة التي كانت بين الفقيه والمتصوف كانت كلها مليئة بالتوتر والنفور.

وقد كان من نتيجة هذه المحنة أن توطدت العلاقة بين أسرة الفقيه التنسي وأسرة المرازقة بأن تُوجت بعلاقة مصاهرة بينهم، ذلك أن السلطان أبا يعقوب المريني بعد أن عفا عن ابن مرزوق، أشار على الفقيه أبي الحسن التنسي بأن يزوج بنت أخيه الشيخ أبي إسحاق التنسي لأحمد بن مرزوق (ابن مريم، 1908، صفحة 29) ووعده بإتمام العقد وتولي النفقة الخاصة بزواجه، فتم عقد قرانهما ، وتولى السلطان جميع نفقات ذلك العرس، فصارت الرابطة الإجتماعية بين أسرة فقه وأسرة تصوف أمتن مما كانت قبل.

2.3 شفاعة الفقهاء للمتصوفة لدى السلاطين:

ومن العلاقات الاجتماعية أيضا نسجل شفاعة بعض الفقهاء لرجال التصوف عند السلاطين، حيث حاولوا منع الحكام من إلحاق الأذى بهم، مثلما حدث مع أحد المتصوفة عندما دخل على السلطان أبي حمو في أول أمره فلم يقبل يده ولم يبايعه، واكتفى بالتسليم عليه ثم انصرف، فغضب السلطان وقال لمن حضر معه في مجلسه كيف لا يبايعني هذا، وأراد أن يؤدبه لولا تدخل الفقيه أبي عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1370م) الذي هدأ من غضب السلطان وقال له: « هذه عادته مع من تقدم من الملوك، وهو من أهل الله » (التنبكتي، 2000، صفحة 438) يقصد بذلك أن الرجل ممن عرف عنه الصلاح والورع فعفا عنه السلطان وكرمه بأن ولاه قبيلة بأكملها، والفضل بعد الله سبحانه يعود للفقيه أبي عبد الله الشريف الذي لم يكن يحمل في صدره غِلا لفئة المتصوفة، لذلك نجده في هذه الحادثة يجتهد ليجد عذرا يبرر به تصرف هذا المتصوف ليمنع عنه سطوة السلطان وبطشه، فقد كان يحترمهم ويعرف لهم قدرهم وهو ما دفعه لفعل ما فعل، وهنا يظهر أيضا دور السلاطين في تقديرهم لفئة المتصوفة من جهة، والأخذ بنصيحة الفقهاء من جهة ثانية وهو أمر لا شك يدفع نحو التقريب بين فئة الفقهاء والمتصوفة.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

وذكر ابن صعد في روضة النسرين أن جماعة من أصحاب الحسن أبركان جاءوا إلى الفقيه محمد بن العباس(ت871هـ/1467م) وهو من أكابر علماء تلمسان وأحد أوعية العلم بها، وكان حينها بجامع سيدي الطيار في تلمسان يسألونه عن مسألة من المسائل فقال لهم: «كيف تسألون عن مثل هذا وسيدي الحسن في الوجود، ونحن منه نتعلم وبه ننتفع» (ابن صعد، 2009م، صفحة 306) مظهرا تواضعه لهذا الرجل الصالح الزاهد ليفهمهم أنه لا فرق عنده فيمن يحمل العلم سواءا كان فقيها أو صوفيا، ومبينا سلامة علاقته الإجتماعية بينه وبين الشيخ الحسن أبركان وهذا مما يدل على متانة العلاقة الطيبة التي كانت تجمع بين فقهاء المغرب الأوسط ومتصوفيه، فقد وجد كثير من الفقهاء الذين أخذوا العلم عن رجال التصوف وانتفعوا بهم فانعكس ذلك على علاقاتهم الاجتماعية.

وقد أثر عن الشيخ بن يوسف السنوسي أنه كان يحرص على أن تربطه علاقة محبة ووُد بالناس خاصة منهم العلماء، فكان لا يحقد على أحد ولا يعبس في وجه غيره، ومما وقع له في هذا الموضوع أن بعض فقهاء عصره الذين كانوا يذمونه أتوه يطلبون منه أن يسامحهم على ما بدر منهم في حقه (التنبكتي، 2000، صفحة 566) فغفر لهم وعفا عنهم، فكان تصرفه هذا سببا في أن ندموا ندما شديدا على عداوته، بل صاروا من محبي الشيخ السنوسي.

ونظرا لهذه الأخلاق العالية لتي تميز بها الإمام السنوسي فقد جعلت الكثير من الفقهاء يحبونه ويحرصون على مصاحبته، يروي لنا الحفناوي في ترجمته للشيخ أن بعض العلماء المعاصرين للسنوسي كانوا كثيري الشغف به محبين له حتى أنهم لما سمعوا بموته تألموا لذلك وقالوا « فُقدت الدنيا بفقده » (أبو القاسم، 1906، صفحة 181) وبكوا عليه بكاء شديدا حُزنا على فراقه لهم.

ومن أمثلة العلاقات الاجتماعية المميزة نذكر علاقة الولي الصالح الزاهد أحمد بن زاغو (845هـ/1442م) ـــ الذي حلاه القلصادي في رحلته بقوله: « شيخنا وبركتنا.......له قدم راسخة في التصوف، مع الفهم السليم والذوق المستقيم، وبه يضرب المثل في الزهد والعبادة » ـــ (القلصادي، 1978، صفحة 103) وبين تلميذه الفقيه أحمد بن زكري(900هـ/1495م) الذي عاش يتيما وبدأ حياته بتعلم حرفة النسيج، لكن الشيخ ابن زاغو توسم فيه النجابة، فنصحه بالتخلي عن الحرفة والتفرغ للدراسة (ابن مريم، 1908، صفحة 39) ولما كانت أم ابن زكري أيما خاف الشيخ ابن زاغو أن تحرم ولدها من التعلم وتجبره على التكسب بسبب حاجتها إلى المال، فصار يدفع لأم اليتيم أجرته في كل شهر ليتفرغ لطلب العلم ومتابعة الدروس حتى صار من العلماء.

مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 2 خ / 16 /03/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

إن هذه القصة تكشف لنا عن الجانب الإجتماعي من حياة ابن زاغو (الصوفي) وتعطينا صورة حقيقة عن العاطفة الجياشة التي كان يكنها للناس وتجسدت في قصته مع الفقيه ابن زكري.

4 خاتمة:

من خلال عرضنا للعناصر الواردة في هذا البحث توصلنا إلى النتائج التالية:

– أن علاقة الفقهاء بالمتصوفة خلال العهد الزياني لم تكن كلها علاقة خلاف ونفور وقطيعة كما قد يتصورها البعض، بل كانت تجمعهم علاقة تواصل ودية تمثلت في الجانب الثقافي من خلال الإجازات التي كان يمنحها بعضهم لبعض، وكذلك التتلمذ على بعضهم بعضا، والتدريس في كلا المجالين الفقهي والصوفي حيث وجدنا الكثير من الفقهاء الذين كانوا يجلسون لتدريس علوم التصوف وكانت لهم مؤلفات فيها، وبالمقابل فقد كان هناك من المتصوفة من كان ملما بالفقه وعلوم الدين وكتب فيها مؤلفات عديدة، وهو الأمر الذي حال دون نشوب خلاف بينهما، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك مراسلات بينهم لأخذ آراء بعضهم حول بعض المسائل العلمية، أما في المجال الاجتماعي فنجد العلاقة التي ربطت الفقهاء بالمتصوفة ممثلة في الشفاعة لبعضهم عند السلطان، وتقديم وتوقير بعضهم لبعض أمام الناس في أمور الفتاوى إظهارا للتواضع والاحترام.

– أن الأمر الذي حال دون نشوب صراع أو شكل من أشكال القطيعة والنفور بين الفقهاء والمتصوفة هو أن التصوف في بداية أمره كان معتدلا حيث كان أصحابه مشتغلون بالعلوم الدينية ويحرصون على التقيد بالكتاب والسنة، ولعل خير دليل على ذلك هو مشاركتهم في التأليف والتدريس في كلا المجالين الصوفي والفقهي.

– وجود الكثير من عباد وصلحاء المغرب الأوسط الذين جمعوا بين التصوف والفقه معا، حيث نجد الكثير من المتصوفة هم في الوقت نفسه من علماء المذهب المالكي، لذلك لم يقع بينهم صراع وقطيعة، بل إننا الكثير من المتصوفة الذين تتلمذوا على الفقهاء ونالوا إجازتهم والعكس صحيح ، وبذاك سار التصوف جنبا إلى جنب مع المذهب المالكي.

– الدور الذي لعبه حكام الدولة الزيانية المتمثل في تبنيهم للمذهب المالكي كمذهب رسمي للدولة، وتعيين العديد من الفقهاء في وظائف الدولة المختلفة وإسناد معظم الخطط إليهم، وبالمقابل فإن هذه السلطة السياسية لم تقم بمضايقة رجال التصوف ـ باعتبارهم يشكلون قاعدة شعبية واسعة ــ بل سعت إلى التقرب منهم لنيل بركتهم ومباركتهم وهو ما أضفى نوعا من الشرعية السياسية لكلا الفئتين وخلق بينهم نوعا من التقارب وصارت لديهم قناعة بأن كلا

العلمين ـ علم الظاهر وعلم الباطن ـ يتمم أحدهما الآخر، وهذا التقارب ولد لدى الفئتين رغبة في معرفة أفكار بعضهما، مما أذاب العديد من الحواجز التي قد تحول بين التواصل بينهما.

وكتوصية في الأخير وجب على الباحثين في مجال التصوف التركيز على إبراز هذه العلاقة النموذجية التي ربطت بين الفقهاء والمتصوفة خلال العهد الزياني، والتأكيد على أن علاقتهما ببعضهما لم تكن في عمومها علاقة نفور وقطيعة، للدلالة على أن الاختلاف في المنهج لا يؤدي بالضرورة إلى القطيعة والخصومة.

كما وجب على الدارسين لتاريخ التصوف في المغرب الأوسط البحث في الأسباب التي أدت إلى الحفاظ على تلك العلاقة الطيبة بين فئة الفقهاء وفئة المتصوفة وذلك بغية استثمارها في واقعنا الذي نعيشه للحيلولة دون وقوع خلاف بين فئات المجتمع الاسلامي.

المصادروالمراجع:

بل ألفرد. (1987م). *الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي* (الإصدار 3). (عبد الرحمن بدوي، المحرر) بيروت: دار الغرب الاسلامي.

بن داود نصر الدين. (2010/2009م). بيوتات العلم بتلمسان من القرن7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م (أطروحة دكتوراه). 236. قسم التاريخ وعلم الآثار، تلمسان: جامعة أبو بكر بلقايد.

بن مرغوب خالد ,ب. م .(2009) .*مكانة الإجازة عند المحدثين بين الإفراط والتفريط الحاصلين فيها من بعض المعاصرين*. مكة المكرمة :دار الأمة للنشر والتوزيع

بوقلي جمال الدين. (2011). *الإمام بن يوسف السنوسي وعلم التوحيد* (الإصدار 1). تلمسان: كنوز للنشر والتوزيع.

بونابي الطاهر. (2006/2005م). حركة التصوف في الجزائر خلال القرنالعاشر الهجري السادس عشر الميلادي(رسالة ماجستير). 378. قسم التاريخ، الجزائر: جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله.

التنبكتي أحمد بابا. (2000). *نيل الإبتهاج بتطريز الديباج* (الإصدار 2). (عبد الحميد الهرامة، المحرر) طرابلس: دار الكتاب.

التلمساني ابن مرزوق. (1981). *المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن*. (بيغيرا ماريا خيسوس، المحرر) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

التلمساني ابن مرزوق. ((ب.د.ت)). *المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج خبايا الخزرجية*. (صباح مجاهدي، المحرر) (ب.د.م): بيلومانيا للنشر والتوزيع.

التلمساني ابن مرزوق. (2008). *المناقب المرزوقية* (الإصدار ط 1). (سلوى الزاهري، المحرر) الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

التلمساني ابن مريم. (1908). *البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان*. (محمد ابن أبي شنب، المحرر) الجزائر: المطبعة الثعالبية.

الحفناوي أبو القاسم. (1906). *تعريف الخلف برجال السلف* (المجلد 1). الجزائر: بيير فونتانا الشرقية.

سعد الله أبو القاسم. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* (الإصدار ط 1، المجلد 1). بيروت: دار الغرب الاسلامي.

الشفشاوني محمد بن عسكر. (1977). *دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر* (الإصدار ط: 2). (محمد حجي، المحرر) الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

ابن صعد الأنصاري. (2009م). *روضة النسرين في التعريف بالاشياخ الأربعة المتأخرين*. الجزائر: عالم المعرفة.

الطالبي عمار. (مارس - أبريل, 2011). الحياة العقلية في بجاية، الفلسفة والكلام والتصوف. *مجلة الأصالة ، مج:7(19)*، صفحة 169.

فتحة محمد. (1999). *النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الاسلامي من ق 6- 9هـ/12-15م*. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية.

القلصادي أبو الحسن. (1978). *رحلة القلصادي*. (أبو الأجفان محمد، المحرر) تونس: الشركة التونسية للنشر والتوزيع.

المقري أحمد. (1988). *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* (المجلد ج: 5). (عباس إحسان، المحرر) بيروت: دار صادر.

المنجور أحمد. (1976). *فهرس أحمد المنجور*. (محمد حجي، المحرر) الرباط: مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر.

ابن منظور جمال الدين. (1987). *لسان العرب* (الإصدار 1). القاهرة: دار المعارف.

نويهض ,عادل .(1980) .*معجم أعلام الجزائر* .(éd. 2)بيروت :مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.

الونشريسي أحمد. (1981). *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب* (المجلد 2). (محمد حجي، المحرر) الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.